الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث قد توقف بنا عند سفره -عليه الصلاة والسلام- إلى الشام مع عمه أبي طالب، حينما كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وتوقف الحديث بنا عند قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وكان الله -عزَّ وجلَّ- قد صانه وحماه من صغره وطهره من دنس الجاهلية.

ثم قال -رحمه الله-: ومنحه كل خلقٍ جميلٍ، حتى لم يكن يُعرف بين قومه إلا بالأمين، لما شاهدوا من طهارته، وصدق حديثه وأمانته، حتى لما بنت قريش الكعبة في سنة خمسٍ وثلاثين من عمره، فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود، اشتجروا في من يضع الحجر موضعه، فقالت كل قبيلةٍ نحن نضعه، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخلٍ عليهم، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إلى آخر الحديث، حينما قالوا: جاء الأمين، جاء الأمين.

- وهذه القطعة من السيرة، التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، فيها فوائد، وهي:

☑ **أولًا:** أن الله -عزَّ وجلَّ- إذا أراد بعبدٍ خيرًا، هيأه منذ صغره، وما يتعلق بالنبوة، جانب اصطفاءٍ محضٍ، لا تدخل فيه مسألة الاجتهاد، مثل ما يقول ابن الجوزي -رحمه الله- معبرًا عن علو همته، يقول: والله لو أن النبوة تُدرك بالمجاهدة، لجاهدتُ نفسي حتى أكون نبيًّا، لكنها لا تُدرك بالمجاهدة.

لكن نحن نتحدث هنا عن جانبين.

- الجانب الأول: تهيئة الله -عزَّ وجلَّ-، كما قال الله في مِنته لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]، فكل الأنبياء اصطفاهم الله -عزَّ وجلَّ-، وجعلهم مِن أشرف الأنساب، وحماهم في صغرهم مما يدنِّس سيرتهم، وهذا هو الموضع الثاني الذي أود أن أتوقف معه من هذه القطعة، وهي: أن الإنسان الموفق الذي عنده هدفٌ بعيدٌ في حياته، يريد أن يكون شخصًا مؤثرًا في الأمة، داعيةً، عالمًا، إنسانًا له موطئ قدمٍ في هذه الأمة، يريد أن يكون له بصمةٌ كما يقال، ينبغي أن ينتبه وأن يحافظ على سيرته في أول حياته، وهذا ليس تقنيطًا ولا تيئيسًا من أولئك الذين مروا بمرحلةٍ من الضياع أو الضلال، ثم هداهم الله، لا، هذه ليست تيئيسًا، ولكن أقول: من توفيق الله لعبده، أنك تراه مهيأً في أول أمره، فاجتنب الأمور التي تشين عرضه، يجتنب الأمور التي لا تليق بالإنسان الذي يحمل هم ونحو ذلك.

☑ **ثانياً:** وهذه فيها رسالةٌ للمربين، من الآباء والأمهات، احرصوا على ألا يلحق أبناءكم وبناتكم شيءٌ يدنس أعراضهم، ويدنس سيرتهم، فإن هذا ستكون ضريبته بعدٌ صعبةً، وقد يأتي الشيطان من هذا المدخل، فيقول: أنت ماذا تصنع؟ أنت تريد أن تكون مؤثرًا؟ ماذا تصنع بتاريخك السابق وقد فعلتَ وفعلتَ وفعلتَ؟ ومع هذا نقول: قد كان بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن سجد للصنم، وممن شرب الخمر، وممن وقع في بعض الموبقات في الجاهلية، فلم يمنعهم ذلك أن يُسلموا، ويؤثروا، لكننا نتحدث نحن في الجملة، في الإطار العام، أن يجتهد الإنسان قدر الإمكان في صيانة نفسه، وسؤال الله -عزَّ وجلَّ- التوفيق والهداية.

☑ **ثالثاً:** انظروا إلى أثر السيرة الحسنة للإنسان على سمعته وتأثيره في الآخرين، وإن كانوا مخالفين، يعني هؤلاء قريش، يعرفون أنه شابٌّ نشأ بعيدًا عن الخنى، بعيدًا عن الفجور، بعيدًا عن الزور، بعيدًا عن الكذب، عن كل ما يدنِّس عرضه، فلما جاء اتفقوا جميعًا على أنه الأمين، مع أنه لم يكن أسنهم، ولم يكن أكبر القوم، ولم يكن أغناهم، بل فيه في ذلك الوقت ممن هو في طبقة آبائه، وأعمامه، ومع ذلك صارت سيرته أقوى تأثيرًا من تأثير السن، وكان سببًا في جمع الكلمة.

ثم قال -رحمه الله-: فصل، ولما أراد الله تعالى رحمة العباد، وكرامته بإرساله إلى العالمين، حبب إليه الخلاء، فكان يتحنث في غراء حراء، كما يصنع ذلك متعبدوا ذلك الزمان، كما قال أبو طالب في قصدته المشهورة اللامية:

وثور ومن أرسى ثبيرًا مكانه ... وراق لبرٍ في حراءٍ ونازلِ

ففاجئه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنةً.

- **هذه القطعة فيها فائدتان:**

❑ **الأولى:** أن الإنسان الداعية الذي يريد أن يهيئ نفسه إلى الدعوة، يجب عليه أن يكون له رصيدٌ من العبادة، وهذا ما نستطيع أن نسميه بالسياج الرباني للداعية.

- ما لم يكن أيها الإخوة والأخوات عند الداعية إلى الله -عزَّ وجلَّ- والعالم وطالب العلم نصيبٌ من التعبد، سينقطع في وسط الطريق ويتعب، لماذا؟ لأن العبادة التي بين العبد وبين ربه -عزَّ وجلَّ-، بمثابة الوقود، البنزين، الذي تعبى به السيارة، لا تقل إني شابٌّ، ونشيطٌ، وأقدر أدعو إلى الله، وأفعل وأفعل، لا، ليست قوة الدعوة بقوة البدن فقط، لا، قوة الدعوة تجمع بين قوة القلب، وقوة البدن.
- إذن ثمرة العلم أن يكون عندك نصيبٌ من التعبد ، في أول البعثة قال الله لنبيه -عليه الصلاة والسلام-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: 1، 2]، إذن أكثر الليل يُقام، وهكذا كان -عليه الصلاة والسلام- يقوم ليلًا طويلًا ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: 2، 3]، يعني السدسين، وهو الثلث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4]، لم كل هذه الأوامر؟ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، هذا القول الثقيل، وهو القرآن والوحي، وأمانة الرسالة، وتبليغ الدعوة، لا يمكن أن يستطيع الإنسان أن يستمر في حمله، ما لم يكن له رصيدٌ من الصلة بالله -عزَّ وجلَّ-، في الليل، في التعبد بالصيام، بالقرآن، المهم يكون لك نصيبٌ من التعبد، وأشرف هذه العبادات عبادات الخفاء، وأشرفها نوافل الصلاة.

وأشرف نوافل الصلاة قيام الليل، وهذا شيءٌ معروفٌ ومقررٌ، بل الله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر أهل العلم قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113].

❑ **الثانية:** هو دأب الصالحين من قبلنا، فليكن لنا يا معشر الإخوة والأخوات، ومن يريد أن يسلك طريق الدعوة، لنا نصيبٌ، ولو قلَّ، نعود أنفسنا، إذا لم ننشط للعبادة ونحن شبابٌ، ولو نشاطًا يسيرًا، متى ننشط لها؟ إلى أصبحت الرُّكب لا تحملنا؟ أو ثقلت أجسامنا؟ أو داهمتنا الأمراض؟ لا، لابد أن يكون لنا نصيبٌ، ونعود أنفسنا حتى إذا ما واجهتنا مصاعب الحياة، ومصاعب الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وإذا معنا رصيدٌ وزادٌ رباني.

- انظروا إلى كبار علمائنا الذين أدركناهم، بل أقول: لا أعلم أحدًا من أئمة الإسلام، منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا، إمامٌ له تأثيرٌ في الأمة، إلا وله نصيبٌ في العبادة، وحينما نقول العبادة، لا نحصرها في قيام الليل، ولكنه أشرف العبادات، تجد له نصيبٌ من القرآن، نصيبٌ من الصلاة، نصيبٌ من قيام الليل، نصيبٌ من الصيام، ولو قلَّ، يعود نفسه شيئًا فشيئًا؛ لأنه بهذه التربية، يخرج إلى ميدان الحياة، وهو واثق الخطوة، وعظيم الثقة بالله -عزَّ وجلَّ-، وبتسديده؛ لأن من خلا بالله، وسأله بصدق التوفيق والسداد، فإن الله تعالى لا يخذله إذا نزل إلى الميدان، الميدان يحتاج إلى صبرٍ ومصابرةٍ، ولهذا ماذا يقول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 5، 6].

- إذن هذا القول الثقيل لا تستطيع أن تحمله إلا بقوةٍ مضاعفةٍ، هذه القوة ليست قوة البدن أيها الإخوة، إنما هي قوة القلب، ولهذا ستفهم بعد هذا جيدًا سبب الصبر، والتحمل العظيم، الذي وفق الله له الصحابة -رضي الله عنهم- وهم يواجهون أصناف العذاب، ما الذي يجعل بلال الذي جاء من الحبشة، وكان عبدًا يُباع ويُشترى، يجرجر على صخور مكة الحارة، فيُقال له: اترك دينك، فلا يجيب إلا بهذه الكلمة: أحدٌ، أحدٌ، ما الذي جعله يصبر؟ قيل في ما بعد: ما الذي جعلك تصبر على هذه الحرارة والصخور؟ قال: "مزجتُ مرارة الألم، بلذة الإيمان، فغلبتْ لذة الإيمان على مرارة الألم"، لكن هؤلاء الصحب يا إخوة، ربُّوا بالعبادة، ولهذا يقول العلماء: إن الله أنزل صدر سورة المزمل، الوجه كاملًا، وأبقى آخره سنةً كاملةً في السماء، كما في صحيح مسلم، ووجب قيام الليل سنةً كاملةً على الصحابة، ليتربوا على العبادة، ثم بعد سنةٍ، نُسخ وجوب قيام الليل على الصحابة، وبقي في حق النبي -صلى الله عليه وسلم- واجبًا، ليتربى الجيل الأول على العبادة، ولهذا بعض الدعاة، أو بعض الناس تجد يسير في الدعوة سنةً سنتين، وثلاثًا، أربعةً، خمسًا، ثم يقف، وأشد من هذا -نسأل الله العافية- أن ينحرف يمينًا ويسارًا، هذا له أسبابٌ، منها لو فتشتَ، -ونحن لا نتهم أحدًا بعينه-، لوجدت أن هناك ضعف صلةٍ بالله -عزَّ وجلَّ- حال المسير، والإنسان ترى والله لو كان أعلم الناس، وأذكاهم، وأحفظهم، لا غنى له طرفة عينٍ عن توفيق الله -عزَّ وجلَّ-، ولهذا كان في الحديث: «ولا تكلْني إلى نفسي طرفة عينٍ».

قال: ففاجأه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنةً.

إذن نُبِّئ وعمره أربعون، وفي رمضان، ما الذي جعل ابن كثير يجزم أنه في رمضان؟

{الآيات التي وردت في هذا ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]}.

- فهذا بالإجماع أن القرآن نزل في رمضان، ولا إشكال في ذلك، وهذا من بركة هذا القرآن، وكان رمضان تشرف بنزول القرآن فيه، هذه واحدةٌ، والثانية فيها أيضًا نقطة تتعلق بنزول الوحي عليه، وعمره أربعون سنةً، وكان قبل ذلك -عليه الصلاة والسلام- قد صنعه الله ورباه، مرت به شدائد، رعى الغنم، سافر في التجارة، خالط الناس، عرف صغارهم وكبارهم، عرف مداخلهم ومخارجهم، ثم لما تهيأ تحمل الرسالة تقدَّم.
- وهذا فيه درسٌ آخر للذين يستعجلون بعض الثمار وهم صغارٌ، في الدعوة إلى الله، لا، تأنَّ، استأنسْ برأي من هو أكبر منك، في العلم، في التجربة، في الدعوة، نحن لا نقول لا تمارسْ الدعوة إلا إذا بلغ عمرك أربعون، لكن نحن نقول: إن هناك مقاماتٍ عاليةً، مقام النبوة لا يعلوه شيءٌ، لكن مقاماتٌ عاليةٌ في الأمة، احذر أن تتصدر قبل أن تهيأ لذلك، يأتي واحدٌ قد يكون اهتدى قبل أمس، أو قبل سنةٍ وسنتين، تجربته في الدعوة ضعيفةٌ، تجربته في العلم ضعيفةٌ، ثم تأتي قضايا كبيرةٌ للأمة، فيريد أن يتصدر، لا يا حبيبي، الأمر ليس بهذه السهولة، أعطي القوس باريها، ارجع إلى أهل العلم، الذين شابت لحاهم في العلم، شابت لحاهم في الدعوة، عندهم تجربةٌ، عندهم بصيرةٌ، عندهم فقهٌ، عندهم ورعٌ، عندهم ديانةٌ.
- **قال: فجاءه الملك، فقال له: اقرأ**، وفي هذه، درسٌ آخر ، وهو: أن أصل كل دعوةٍ صحيحةٍ هي العلم، ما قال الله له أول آيةٍ نزلت عليه تعبد، ولا قال له: ادعُ، لماذا؟ لأن الدعوة التي تقوم على غير العلم، لا بركة فيها، بل ثمارها السيئة إن صحت العبارة، أو مفاسدها أعظم من مصالحها، ولهذا لو أردنا أن نصوغ عبارةً، أو نقول: إن الله -عزَّ وجلَّ- في بدايات نزول القرآن ربَّى نبيه -صلى الله عليه وسلم- على أربع قواعد، قامت عليها دعوته -صلى الله عليه وسلم-، وانطلق راسخ البنيان، أول قاعدةٍ: هي العلم، **لو أردنا أن نقول الرباعية التي ارتكزت عليها السيرة النبوية، هي كالتالي:**
  - **الركن الأول:** العلم.
  - **الركن الثاني:** العبادة، الذي هو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1].
  - **الركن الثالث:** ركن الخلق، وشاهده: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. العبادة ما ركنها؟ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: 2].
  - **الركن الرابع:** ركن الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وهو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، وهذه لاحظوا هذا الترتيب هو الذي سنقرؤه في السيرة -بإذن الله تعالى- وهو الذي نزلت به آيات القرآن.
- إنسانٌ يدعو بدون علم، سيفسد أكثر مما يُصلح، إنسانٌ يدعو مع تقصيرٍ في العبادة، قد يتوقف، إنسانٌ يدعو بدون خُلقٍ حسنٍ، لا يمكن أن يُستجاب له، وأنتم رأيتم كما تقدم قبل قليلٍ، جاء الأمين، يسمونه الصادق الأمين، ما رموه في أخلاقه -عليه الصلاة والسلام-، ولا في عرضه -صلى الله عليه وسلم- كان طاهر الأردان.
- إذن أي داعيةٍ يريد أن ينطلق في الدعوة، فعليه بهذه الرباعية، هذه الرباعية هي التي ربَّى الله -عزَّ وجلَّ- عليها نبيه -صلى الله عليه وسلم-.
- إذن أول أصلٍ في الدعوة هو العلم، ثم قال: «لست بقارئ» ثلاثًا، ثم قرأ أول خمس آياتٍ، وهي أول ما نزل من القرآن بالإجماع: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، وتلاحظون ﴿ اقْرَأْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ ﴾ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، فكلها تدور حول العلم.

- وفي قوله هنا: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3]، انظر ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: 1-4]، بعض العلماء هنا طرح تساؤلًا، ما الحكمة في الأمر بالقراءة، مع ذكر خلق الإنسان؟ ما علاقة خلق الإنسان بالقراءة؟ هذا سؤالٌ يرد، فبعض العلماء يقول: إن الإنسان كما جمَّل الله ظاهره بالخلق القدري، ﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 7، 8]، كما سواه، فيقولون: كما أن هذا جماله الظاهر، فجماله الباطن بالعلم، ولذلك قرن الله بينهما.
  ثم قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ، ليبين أنك أي خطوةٍ تخطوها في هذا الطريق، فستجد من ربك التوفيق والعون، إذا صدقتَ، فإنه أكرم، وهذا هو الموضع الوحيد الذي ورد فيه هذا الاسم.
- فأبشر بخيرٍ أيها الداعية، إذا صدقتَ، وسلكتَ الطريق الصحيح، العلم، العمل، الخلق، الدعوة، وهذه جُمعتْ في سورة العصر ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2] الرباعية السابقة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ علم ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قوم الليل ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]، هذه من مظنات الطريق، الخلق الحسن مع الدعوة إلى الله.
- قال: فرجع بها، أي رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الآيات ترجف بوادره، فأخبر بذلك خديجة، وقال: قد خشيتُ على عقلي، لماذا؟ لأن الوحي له ثِقلٌ كما سمعتم في الآية قبل قليلٍ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 6]، وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- في الصحيحين، أنها قالت -رضي الله عنها-: "كان الوحي" أو حديث زيد بن ثابت: "كان الوحي ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم الشاتي، وإن جبينه ليتفصد عرقًا من ثِقله، حتى إنه مرةً" يقول زيد بن ثابت: "لما نزل الوحي علي وأنا بجانبه، كادت رجله أو ركبته، أو فخذه، تندق من ثِقل الوحي عليه"، صلوات ربي وسلامه عليه.
- وكذلك أيضًا في حديث يعلى بن أمية في الصحيحين، لما نزل عليه الوحي في صلح الحديبية، لما جاءه الرجل، يسأل عن العمرة والحج، وعن الصفرة، قال: وكنت أريد أن أرى النبي -صلى الله عليه وسلم- مرةً من المرات والوحي ينزل عليه، قال: فإذا له غطيط، يعني أخذه شيء يُشبه النُعاس، من ثِقل الوحي عليه، فلما سُرِّيَ عنه، قال: «أين السائل عن العمرة».
- الحاصل، رجع، وخشيت على عقلي؛ لأنه شيءٌ جديدٌ، أن ينزل عليك ناموسٌ، أو وحيٌ من السماء، ومن ملك، هذا شيءٌ خارقٌ للعادة، أو غير معتادٍ للبشر، فثبتته وقالت، ويا ليت أخواتنا النساء يسمعن هذا الجواب العظيم، من هذه الزوجة الصالحة، أمُّنا خديجة -رضي الله عنها وأرضاها-. ماذا قالت؟ "أبشر" هذه أول كلمةٍ، ثم قالت: "كلا"، يعني جزمت بأنك لا يمكن أن تُخذل، "ومثلك لا يخاف". لماذا؟ قالت: "والله لا يخزيك الله أبدًا"، الله أكبر، والله يا إخوة إنني أتعجب كل ما مررت بهذا الحديث أتعجب ، لم؟ لم ينزل غير هذه الخمس آيات، يعني هو نزل عليه خمس آياتٍ وراجع خائفًا، فاستدلت -رضي الله عنها-، وهي المرأة العاقلة بسنن الله -عزَّ وجلَّ- في الرجال الصالحين، بأن الله لا يخزيهم، لماذا؟ ذكرت كم نقطةٍ لاحظوا "إنك لتصل الرحم" اربطوها يا إخوة بالركن الثالث، وهو ركن حسن الخلق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، "إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". قالت: "وتقري الضيف" أيضًا في أحد الروايات، هذه خمس صفاتٍ، وهي رسالةٌ لنا يا معشر الدعاة، طلب العلم، كونوا

كذلك، فإن كنتم كذلك، والله لا يخزيكم الله أبدًا، هي ليست خاصةً بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، لا يخزيكم الله أبدًا، في قضية حسن الخلق، ولهذا بعض الناس في دعوته، يُفسد أن يكون تأثيره السلبي أكثر، لماذا؟ لأنه قد يكون خشن العبارة، في التعامل مع الناس، قد يكون صلفًا، بل والعياذ بالله، قد يكون أقرب الناس إليه والداه هم أضعف الناس تأثرًا بدعوته، بل ربما انشغل بزعمه، بدعوته الناس، وترك البر بوالديه، ما هكذا تُفهم الدعوة.

- "إنك لتصل الرحم"، من وصلها وصله الله، "وإنك لتحمل الكَلَّ" العاجز، تعينه تساعده، "وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" إنسانٌ مكروبٌ تساعده.
- قال في أوصافٍ أخرى جميلةٍ عددها من أخلاقه، تصديقًا منها له، وتثبيتًا وإعادةً على الحق، فهي أول صدِّيقٍ له -رضي الله عنها وأكرمها.

ثم قال -رحمه الله-: ثم مكث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئًا، وفتر عنه الوحي، فاغتم لذلك، وذهب مرارًا ليتردى من رءوس الجبال، وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرةٍ، من حلاوة ما شاهده من وحي الله إليه.

- فقيل: إن فترة الوحي كانت قريبًا من سنتين، أو أكثر، ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسي، وثبته، وبشره أنه رسول الله حقًا، فلما رآه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَرِقَ منه، يعني خاف.
- ثم ذهب إلى خديجة مرةً ثانيةً، وقال: «زملوني»، لاحظ هناك، قال: «خشيتُ على عقلي» ؛ لأنه أول مرةٍ، الثانية خاف، لكنه خوفٌ أقل من الأول، فقال: «زملوني، دثروني» ، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، ونزلت أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1] قبلها.
- قال: فكانت الحال الأولى التي انقطع فيها الوحي، حال نبوةٍ وإيحاءٍ، التي نزل عليه فيها بعد ما نزلت "اقرأ" انقطع الوحي، كانت هذه لتثبيت النبوة، ثم أمره الله بعد هذه الآية، أي بعد نزول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، بأن يُنذر قومه، ويدعوهم إلى الله -عزَّ وجلَّ-، وشمَّر -صلى الله عليه وسلم- عن ساق التكليف، وقام في طاعة الله أتم قيام يدعو إلى الله الكبير والصغير الحر والعبد، الرجال والنساء، الأسود والأحمر، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلةٍ.
- **هذا المقطع لنا معه وقفتان:**

❖ الأولى: في تحرير أنواعٍ أو كم عدد فترات الوحي التي مرت به -صلى الله عليه وسلم-. فنقول: خلاصة كلام أهل العلم في هذا: أن الوحي فتر عنه مرتين فقط، الأولى: وهي بعد نزول الوحي أول مرةٍ -صلوات الله وسلامه عليه-، قبل أن تنزل عليه سورة المدثر، أو سورة المزمل، وهذه التي عناها المصنف: في أول أمره، حينما قال: وفتر عنه الوحي فاغتم لذلك.

- هذه الفترة هي التي أشار المؤلف بعد ذلك إلى الخلاف في مدتها، لكن الآن دعونا نحدد الفترة المرحلة الأولى، والمرحلة الثانية، إذن بعد نزول الوحي أول خمس آياتٍ، فتر الوحي عنه، سنأتي إلى مدته بعد قليلٍ.

❖ **الثانية:** الفترة الثانية: هي حينما نزل ثمان أو عشر سورٍ تقريبًا، التي نزلت بعد الفترة الأولى، وهذه مدتها ليلتان أو ثلاثةٌ، كما في حديث جندب بن سفيان في صحيح مسلم، قالت امرأةٌ: إني أرى شيطانك قد قلاك، قبَّحها الله، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]، يعني ما هجرك.

- نرجع إلى الفترة الأولى، التي قررنا أنها وقعت قبل نزول المدثر أو المزمل، وهي التي عناها المصنف -رحمه الله-، يعني بعد نزول أوائل "اقرأ"، ونزول عددٍ من السور، لكن قبل أن تنزل سورة المدثر، وقبل أن تنزل سورة المزمل، كم مدتها؟
- المؤلف أشار إلى قولٍ، فقال: إن فترة الوحي كانت قريبةً من سنتين أو أكثر، وبعضهم قال: أربعون، وبعضهم قال أكثر وأقل من ذلك، لكن الذي جزم به ابن إسحاق، وهو أحد أئمة السير، ووافقه عليه الشعبي، وإليه يميل ابن كثيرٍ هنا، أنه قرابة ثلاث سنواتٍ، لأن ابن كثير قال: سنتين أو أكثر، كأنه يشير إلى الثالثة.
- فالذي جزم به ابن إسحاق أن المدة فترت ثلاث سنواتٍ، ولاشك أن هذه مدةٌ طويلةٌ جدًّا على النبي -صلى الله عليه وسلم-، حينما نزل عليه الوحي.

هذه مسألتان، مسألة أوقات الفترات، والثاني: مدد هذه الفترات.

- النقطة الثالثة التي أود أن أعلق عليها، وهي أنه قال: فاغتم لذلك، وذهب مرارًا ليتردى من رؤوس الجبال، هذه الجملة الصحيح أنها لا تثبت عنه -صلى الله عليه وسلم-..

ثم قال -رحمه الله-: أمره الله أن يُنذر قومه.

- بالفعل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: 1، 2]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، فقام -عليه الصلاة والسلام- ونوَّع في وسائل الدعوة، ومن ذلك أنه قام يومًا على الصفاة، **«يا صباحاه، يا صباحاه»** ، فاجتمع له قريشٌ، وقال: **«ماذا لو أخبرتكم عن خيلٍ بُهمٍ دُهمٍ»** ، أو: خيلٍ ستأتي عليكم من خلف الجبل، جبل أبي قبيس، قالوا: ما عهدنا عليك كذبًا، وكان قد نادى: **«يا معشر قريش، يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا فاطمة بنت رسول الله، يا صفية، عمة رسول الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا»**، فلما قال لهم: ما تظنون أني لو أخبرتكم يعني، قالوا: ما عهدنا عليك كذبًا، قال: **«إني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ»** ، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

- فأوذي -عليه الصلاة والسلام- هو ومن معه، أوذي باللفظ القولي، أوذي باللفظ العملي، لما خرج إلى الطائف، كما سيأتي، خرج إلى الطائف، فرماه أهل الطائف حتى أدمو عقبيه الشريفتين -صلوات الله وسلامه عليه-، خرج مهمومًا مغمومًا، يمشي مسافة ثلاثين كيلو، من الهم والحزن، فلم يستفق إلا بقرن الثعالب، من شدة ما لاقى -عليه الصلاة والسلام-، وأرسلوا عليه الصبيان والسفهاء من أجل أن يؤذوه.
- هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أوذي، فكان الصحابة وهم ينظرون إلى قدوتهم -عليه الصلاة والسلام- يؤذى، كان هذا زادًا آخر، زاد الصبر، الذي تحلوا به، واستعانوا به على الصبر في طريق الدعوة.
- ثم انتقل المؤلف إلى بيانٍ من الذين أسلموا، سرد باختصارٍ، ولا نطيل في هذا كثيرًا، ذكر أول شيءٍ، أن أول من أسلم معه خديجة، فهي سابقة النساء على الإطلاق، ومن الرجال قال: أبو بكر، ثم استجاب لأبي بكر

عثمان، لاحظوا الآن، يقول هنا: فاستجاب له عباد الله من قبيلة، وكان حائز سبقهم أبو بكر -رضي الله عنه-، عبد الله بن عثمان التيمي، وآزره في دين الله، ودعا معه إلى الله على بصيرةٍ، قال: فاستجاب لأبي بكر عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن أبي و قاص، كل هؤلاء الكبار، أربعةٌ من المبشرين بالجنة، كلهم في ميزان حسنات أبي بكر.

- وهذا نستفيد منه فائدةً: وهي أنك أيها الداعية، لا تحقر شيئًا، ولا شخصًا تدعوه إلى الله -عزَّ وجلَّ-، فقد ينفع الله به الإسلام، بل قد يكون أفضل منك، في الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-. فأنت لا تحقر، يعني مثلًا بعض الإخوة والأخوات في بيوتهم يقول: أنا ما عندي ذاك العلم الكبير، ولا عندي، نقول: بارك الله فيك، نشأ لنا ابنًا وبنتًا، يحملون هم الإسلام، يحملون الدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، دعوهم يقومون بالدعوة إلى الله -عزَّ وجلَّ-، بما تستطيعون، حتى ولو ترتب على ذلك أن تدخلوهم في مدارس يتعلمون فيه هذا الأمر، وتدفعون لهم من أموالهم، فإن بناء الإنسان أعظم من بناء الأبدان.
- يقول: وأما عليٌّ، فأسلم صغيرًا، ابن ثمان سنين، وقيل أكثر من ذلك، فقيل: إنه أسلم قبل أبي بكر، لكن يقول ابن كثير، -لاحظوا هذا من التحقيق في عرضه للسيرة-، يقول: وقيل: لا، ليس قبل أبي بكر. ثم قال: وعلى كل حالٍ، فإسلامه ليس كإسلام الصديق، وهذا صحيحٌ؛ لأنه إسلام طفلٍ، ليس كإسلام الرجل البالغ، وهذا من العبارات الجيدة في التحقيق، لأنه كان في كفالة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أخذه من عمه إعانةً له على سنةٍ محلٍ، يعني سنةً أصابت الناس بالجوع والفقر، فأعانه على تحمل عليّ؛ لأن أبا طالب كان عنده أولادٌ كثيرون، فأخذه النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه كان أسن منه بكثيرٍ، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان عمره قرابة الأربعين، وعليٌّ عمره سبع أو ثمان أو تسع أو عشر، يبقى طفلًا صغيرًا، فأعان عمه الذي ناصره في أول أمره.

قال: وكذلك أسلمت خديجة، وزيد بن حارثة، وأسلم القس ورقة بن نوفل.

- إذن ابن كثير يفيدنا هنا، أن ورقة بن نوفل صحابيٌّ، وهذا مذهبٌ لبعض أهل العلم، وقد ترجم له بعضهم في كتب الصحابة، وقالوا: وصدَّق بما جاء من وحي من الله، وتمنى أن لو كان جذعًا.
- يعني لما جاءه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذهبت به خديجة، يعني خديجة لما فاجئ الوحي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قلقٌ على نفسه، كما تعلمون، قالت خديجة: تعال نأتي إلى ورقة بن نوفل، فإنه رجلٌ يقرأ الكتاب، يعني كتاب التوراة والإنجيل. فلما جاءه النبي -عليه الصلاة والسلام-، أخبره ما الذي فاجأه من وحيٍ، قال: والذي نفسي بيده، هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ثم قال له: ليتني كنت فيها جذعًا، يعني ليتني أدركت هذا الأمر وأنا صغيرٌ، شابٌّ على الأقل حتى أنصرك، قال: وإن قومك سيخرجونك، وإن يدركني يومك، يوم إخراج قومك لك، لأنصرك نصرًا مؤزرًا، قال: **«أومخرجيَّ هم»**، هذا عيبٌ، كيف قبيلتك تطردك من البلد، قال: ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي.
- وهنا درسٌ، لا تظن أن طريق الدعوة مفروشٌ بالورود والرياحين، سيواجهك أقاربك، يعني المعادون للدعوة، لكن هنا تبقى الحكمة في التعامل، كيف أتعامل مع الوالدين إذا كانوا أعداء للدعوة أو مخالفين، كيف أتعامل مع الإخوة، كيف أتعامل مع الجيران، مع الأقارب، مع أبناء العم، مع العشيرة، مع أهل البلد، مع،

مع، مع، هذا درسٌ آخر، لكن المهم ألا يتصور الإنسان أن هذا الطريق محفوفٌ بالورود والرياحين، لا هو محفوفٌ بالمكاره؛ لأنه طريق يؤدي إلى الجنة.

قال: وقد روى الترمذي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رآه في المنام في هيئةٍ حسنةٍ، وجاء في حديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «رأيت القس عليه ثيابٌ بيضٌ». لكن هذا الحديث لا يصح.

- قال: وفي الصحيحين أنه قال: هذا الناموس الذي جاء به موسى إلى آخره، قال: ودخل في الإسلام من شرح الله صدره للإسلام، على نورٍ وبصيرةٍ ومعاينةٍ، فأخذهم سفهاء أهل مكة بالأذى والعقوبة، وصان الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- وحماه بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفًا مطاعًا فيهم، نبيلًا لا يتجاسرون على مفاجئته بشيءٍ من أمر محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، لما يعلمون من محبته له، وكان من حكمة الله، بقاؤه على دينهم، لما في ذلك من المصلحة، هذا ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لا يصده عن ذلك صادٌّ، ولا يرده عنه رادٌّ، ولا يأخذه في الله لومة لائمٍ.
- نختم بدرسنا هذه الليلة، **هذا المقطع بالتعليق عليه ببعض التعليقات.**
- قال ابن كثير هنا: ودخل من شرح الله صدره للإسلام على نورٍ وبصيرةٍ، فأخذهم سفهاء مكة بالأذى، وهذا تأكيدٌ لما ذكرناه، وهو أن سنة الله -عزَّ وجلَّ- في من سلك هذا الطريق لابد أن يؤذى، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

❑ **الأمر الأول:** هذه سنة الله، من سلك طريق الدعوة، ويظن أنه مرتاحٌ، فقد أخطأ ووهم، طريق الدعوة، طريقٌ ثقيل الأعباء، لكنه بعون الله يخف، طريق محفوفٌ بالأشواك، لكنه بنور العلم والبصيرة يستطيع أن يتجنبها الإنسان، ويسير في طريقه، ولابد من ذلك، لأجل أن الدعوة عملٌ عظيمٌ، وتحتاج إلى صبرٍ ومصابرةٍ، فيُصنع الإنسان على هذه الشدائد، ليتحملها، وما هي إلا أيامٌ، حتى يضع قدمه على عتبة الجنة -بإذن الله تعالى وتوفيقه.

❑ **الأمر الثاني:** قال: وحماه الله بعمه أبي طالب؛ لأنه كان شريفًا، وهذه علقنا عليها قبل قليلٍ، أو في الدرس الماضي، وقلنا: إن الله -عزَّ وجلَّ- من حكمته ورحمته ببعض الدعاة، أن يهيئ لهم من ينصرهم، لا ديانةً، وإنما عصبيةٌ بسبب الجانب القبلي.

❑ **الأمر الثالث:** أنه قال: من حكمة الله بقاؤه على دينه، لما في ذلك من المصلحة، الآن نحن نتحدث بعد ما قُضي الأمر، وإلا النبي -عليه الصلاة والسلام- حرص على دعوته، يعني ما قصَّر معه، حتى آخر نفسٍ في حياة أبي طالب، ما تركه النبي -عليه الصلاة والسلام-، بل جاء إليه وهو في مرض الموت، فقال: **«يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاج لك بها عند الله»** ، وكان عنده أبو جهلٍ وعبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن أبي ربيعة أسلم بعده، لكن في تلك اللحظة لم يكن مسلمًا، فانظروا إلى أثر أصدقاء السوء أيها الإخوة والأخوات، قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ أتوا إليه من الباب الذي يعظمه، شأن القبيلة، الآباء، الأجداد، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ تترك الدين الذي كان عليه أبوك وجدك؟ وهذا العذر سبحان

الله، أعرف أناس، إخواننا الذين كانوا في بدعٍ عظيمةٍ، ومنكرةٍ، بل بعضها كفريٌّ، لما تسننوا، وهداهم الله -عزَّ وجلَّ- لأهل السنة، قال لهم آباؤهم: هذه الكلمة بعينها، يعني أنا أبو سبعين سنةً، أو ثمانين سنةً، وأبوك وجدك على ضلالٍ، وأنت الذي على هدى، نفس المنطق، فليصبر الداعية، وليوطن نفسه على ذلك.

- قال: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ قال: مات، هو على ملة عبد المطلب، مات عليها، فحزن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: **«أما والله لأستغفرن لك، ما لم أُنه عنك»**، فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى**﴾ [التوبة: 113]، وأنزل فيه أيضًا: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: 56]، وهذا يقودنا أيضًا إلى درسٍ آخر في هذه القصة، قصة أبي طالب، وعلاقته مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو أن الإنسان قد يجتهد في دعوة من يحبهم، سواءً كانوا أقارب، جيرانًا، أصدقاء، إلى آخره، فتنقطع السُّبل، ولا يجد بابًا مفتوحًا، بل يجد إعراضًا، وصدودًا، وربما وجد حربًا وعداءً، فنقول له: لك في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوةً حسنةً، لست أصدق من الرسول، ولا أكثر حرصًا من دعوته لأقاربه، ومع ذلك لم يستجب، وهذا له سرٌّ عظيمٌ، ما هو السر أيها الإخوة؟ من يحاول أن يكتشف منكم السر في كون الهداية هداية التوفيق بيد الله، لا بيد البشر، لماذا؟ من الأسرار حتى لا يغتر الداعية بجهده، تصور أنت الآن إنه والله قيل، أنا اهتدى على يدي، أو أنا الذي هديت فلانًا، وأنا الذي هديت فلانًا، مع الوقت يكثرون المهتدون على يده بزعمه هو، أنه هو الذي هداهم، فربما دخله العُجب، وفيها درسٌ آخر، وهو أن يكون قلبك أيها الداعية معلقٌ بالله، يا رب، اهدي أبي، يا رب اهدي أمي، يا رب اهدي أخي أختي، وهكذا، تتعلق بالله؛ لأن قلوبهم بيد مَن؟ بيد الله، قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، حتى تبرأ من حولك وقوتك، أبدًا لا تهدي من أحببت، وهذا تجد أحيانًا عجائب، إنسانٌ يأتي من أقصى الدنيا، من بلادٍ بعيدةٍ، يأتي سلمان من فارسٍ، ويأتي بلالٌ من الحبشة، يسلمون، ويسمعون، ويقولون: أشهد أن محمدًا رسول الله، وعمه أبو طالب، وعمه أبو لهب لا يسلمون، وهذا يجعل الإنسان دائمًا دائم التعلق بالله -سبحانه وتعالى-، لا في ثباته هو؛ لأنه لا يأمن على قلبه أصلًا هو أن ينحرف، وأيضًا يتعلق قلبه بسؤال الله -عزَّ وجلَّ- أن يهدي فلانًا، ويهدي فلانًا، ويهدي فلانًا، والقصص في هذا كثيرةٌ.

- ثم قال: هذا ورسول الله يدعو إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، لا يصده عن ذلك صادٌّ، ولا يرده عنه رادٌّ، ولا يأخذه في الله لومة لائمٍ، وهذا فيه الدرس الأخير الذي نختتم به درسنا هذه الليلة: الصبر على الدعوة.

- قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: 108]، ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ**﴾ [الأنعام: 162] كل الحياة، ما فيه لحظةٌ من الحياة لغير الله، لا، ﴿**وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: 162، 163]، ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: 33].

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

